المحاضرة الثالثة

السنة الأولى فلسفة الشرق المحاضرة الثالثة الدكتورة بشرى عباس

(٣)

مصر-وظيفة الدولة الكون والدولة

قبل البحث في الدولة ومكانها عند المصريين علينا النظر في سؤالين هما هل كان المصري القديم يرى فرقاً أساسياً من حيث الجوهر بين الإنسان والمجتمع، والنبات والحيون المحسوس؟

وهل كان يعتقد أن الكون يحسن إليه؟ أو يعاديه، أو لا يأبه له.

السؤلان على اتصال في الإجابة عن علاقة الدولة بالكون وبعمل الدولة لخير الإنسان.

لنبحث أولاً عن الفرق من حيث الجوهر بين البشر والآلهة وعناصر الكون الأخرى، هذا السؤل أقلق علماء اللاهوت المسيحيين فيما يخص مصر القديمة

من الواضح أن الإنسان شيء، والسماء أو الشجرة شيء آخر، هذه الأشياء عند المصري ذات طبائع متقلبة غير مستقرة إلا أنها تتمم بعضها بعضاً فهو قد يرى السماء سقفاً محسوساً بقرة أو امرأة، وكذلك فيما يخص الشجرة. والحق قد يعتبره فكرة مجردة أو بطلاً إلهيا كان يوما ما يقيم على الأرض.

والإله قد يصور رجلاً أو صقراً أو رجلا له رأس صقر أو أسد.

هذا يعني أن هناك جوهراً مستمراً يمتد من مظاهر الكون عضوية كانت أو لا عضوية أو مجردة، هذا يعني أن الكون يتلاشى فيه اللون الواحد في اللون الآخر دون حد فاصل بينهما بل اللون الواحد قد يتحول إلى لون تحت تأثير الظروف.

هذا يعني أن المصري كان ينظر إلى عناصر الكون على أنها متحدة في الجوهر ما . أي اعتبار السلوك الإنساني مرجعاً في فهم الظواهر غير الإنسانية، والأمر ذاته ينطبق على الآلهة فإذا ما فعلوا الخير فهم خيرون وإذا فعلوا الشر فهم أشرار، وهذه النتيجة على علاقة مباشرة بمهمة الدولة والقوى المسؤولة عن الدولة.

ولعل أول دليل على أن عناصر الكون في تصور المصريين من جوهر واحد هو الأبدال أو التبادل فقد كان من السهل على عنصر واحد أن يحل محل عنصر آخر فالمتوفي يريد خبزا لكي لا يجوع في العالم الآخر.

ولهذا نجد أن بعض المصريين كانوا يتعاهدون على تقديم أرغفة الخبز إلى قبره بانتظام لكي تعود روحه وتأكل من الخبز، ولما كان يعرف الجشع الخدم والمأجورين كان يقوم بسد حاجته تلك فيصنع نموذجاً للرغيف من الخشب يوضع على قبره، وبعد ذلك تمثيلاً كافياً للخبز الحقيقي.

وصور أرغفة الخبز على جدران القبر تستمر في إطعام الميت، وإذا لم يوجد شكل تمثيلي كان يكتفي بكلمة خبز، ولنأتي بالتمثيل إلى منطقة أخرى، كان الإله يمثل شيئاً خطيراً في الكون كالسماء أو أحد الأقاليم فهذا الإله من حيث وظيفته شديد الاتساع وغير محسوس، ولكن قد يخصص له مكان في عالمنا يجد فيه الراحة أي أنه قد يقام له معبد أو هيكل وفي هذا المكان كان يخصص له مكان يظهر فيه على شكل صورة أو صنم، ليس الصنم بالإله فما هو

Scanned by CamScanner

إلا وسيلة تتيح له المثول للعيان، ولهذا فإن التمثال ينوب عن الإله كلما خاطب المتعب التمثال وهذا الأمر وفقما تقتضيه طقوس العبادة.

وللآلهة أيضا بديلون آخرون فملك مصر هو أحد الآلهة وممثل البلاد بين الآلهة، إضافة إلى أنه الوسيط الرسمي بين البشر والآلهة، هذا ويشار إلى أن المصري لم يكن يفرق ما بين الرمزية والمشاركة، فإذا قالوا إن الملك هو /حورس/ لم يقصدوا بذلك أن الملك يلعب دور حورس، بل قصدوا أن الملك هو حورس بالفعل، وإن الإله موجود فعلا في جسد الملك، فهناك نص عثر عليه يشير إلى تمجيد الملك، وأنه يعادل بعدد من الآلهة في وقت واحد، /إنه سيا/ إله الإدراك، إنه (رع) إله الشمس، (إنه خنوم خالق البشر على دولاب الخزاف) إنه (باستث) إله الحاشية، إنه (سنحمت) إله العقاب والفهم والحكم الأعلى وإكثار السكان والحماية والعقاب.

وهكذا نلاحظ أن مهمة الملكية عديدة النواحي بحيث يعجز فرد واحد عن القيام بالحكم المطلق فكان لا بد من توكيل أفراد آخرين ببعض المسؤوليات.

قد يصر مبدأ الدولة على أن الملك هو الكاهن الأوحد لجميع الآلهة ولكن يستحيل عليه أن يقوم بوظيفته كل يوم في كل معبد، فلا بد من توكيل البعض بهذا العمل أيضا.

ولكن هناك فارق في التمثيل إن الكاهن أو الموظف يعمل نيابة عن الملك لا كأنه هو الملك فهو موكل عن طبيعة الكائن الآخر لا مشارك فيها، ولكن هذا الفارق ليس بالمطلق فاللذين يعملون في ذات المكان يشاطرونه شخصيته إلى حد ما. فوجود أعضاء الحاشية في مملكة مصر القديمة حول هرم الفرعون دليل على رغبة هؤلاء مشاطرته مجده الإلهي. فبين الإله وبين الإنسان ينعدم ذلك الحد الفاصل.

وفي مجموعة أخرى من التراتيل تدعى توحيدية، يخاطب الإله كشخص واحد مؤتلف الشكل أمون، رع، أتوم، هرفتي، أي أنه يتألف من إله الشمس والإله الأعلى والإله الوطني كلهم ملتئمين في واحد.

وهكذا فإننا نميل إلى القول بأن المصريين يؤثرون اتحاد الجوهر والتبادل الحر. وهذا يؤكد على أن المصري كان موحد في الطبيعة لا موحد في الله.

وأحد عناصر الاتحاد بالجوهر، هو كون الآلهة المصرية إنسانية الطبع لها ما للإنسان من ضعف وحالات غير مستقرة. فهي لا تستطيع البقاء دائما معصومة عن الخطأ وليس بينها إله مكرس لوظيفة واحدة لا يحيد عنها فمثلا يعرف عن الإله (ست) أنه عدو الإلهين (الخيرين) أوزيرس وحورس ولذا فهو عدو الخير وأقرب ما يكون إلى الشيطان. ويبدو أن المصريين كانوا يسرون لإنسانية آلهتهم، فهناك قصة شائعة تروي كيف ندم رع، الإله الخالق على خلقه البشر حين تآمروا عليه بالشر.

فصمم على القضاء عليهم، وأرسل إليهم (سنحمت) أي القوية فراحت هذه تفتك بهم بعد ذلك لأن قلب (رع) وأسف لرغبته في إفناء الخليقة، ولكن بدلاً من أن يأمر سنحمت بوقف المذبحة لجأ إلى الحيلة، وصب في طريق سنحمت آلاف جرة من الشراب الأحمر لكي تظن أنه دم، وإذا خاضت في الشراب سكرت وأوقفت فتكها بالناس.

هذه الحكاية الصيبانية تختلف كثيرا عن قصة الطوفان التي في التوراة لخلوها من الدوافع الخلقية.

Scanned by CamScanner

المحاضرة الثالثة

وإذا كانت الآلهة إنسانيين إلى هذا الحد. فليس من العجيب أن يخاطبهم البشر بشيء من الغلظة. فهناك نصوص غير قليلة يذكر فيها المتعبد خدماته للآلهة ويتوعد منهم من ليس عليه خدمة بخدمة. فمن المقطوعات الشهيرة في الأدب المصري مقطوعة تدعى (ترتيلة آلهة البشر) لأن المتوفى يقول فيها أنه عازم على التهام كل ما يلقاه في سبيله من إنسان أو آلهة.

وامتداد هذه الفكرة هو أن أي إنسان قد تشتد قوته بالسحر فيتمكن من التهام أعظم الآلهة وبالتهامهم يتقمص من كيانه سحرهم و ابهتهم.

وليس المصري المعاصر يشعر بأنه محاط بقوى شخصانية لا ترى. هي الجن يقترن كل منها بظاهرة من ظواهر الطبيعة من طفل أو خاروف أو مسكن أو شجرة أو ماء وبعضها يبغي الخير وبعضها يبغي الشر. وكان أكثرها ساكن لا يتحرك إلا إذا أسيء إليه.

وكان المصري القديم يشعر بنفس الشعور فتهدهد الأم طفلها بأغنية تحميه منشدة با شيئاً سارياً في الظلام متسللا في دخولك، أنفك خلفك، ووجهك ملتوي . با من أخفق فيما جاء إليه. أجئت تقبل طفلي. لن أدعك تقبله. أجئت تخرس طفلي؟. لن أدعك تخرسه. أجئت تؤذيه لن أدعك تؤذيه. أجئت تخطفه. لن أدعك تخطفه. لقد جعلت وقايته السحرية من البرسيم، والبصل والعسل)

وهناك دعاء ضد المرض. ولكن رغم هذا العالم المحيط بالإنسان المؤلف من قوى روحية لا يعرف ما تضمر فإن القاعدة العامة هي أن لبعض الكائنات وظيفة أو فاعلية مقررة. وهذه القاعدة إما أن تكون محسنة أو مسيئة.

وعلى هذا النحو استقرت وظائف الشمس والنيل والريح الشمالية. وزيردس. وابزدس. وغيرها على الخير كما استقرت وظائف شيطان أبوق و سنحمت على الشر والأذى.

الملك

انعكست فكرة التوازن والتناظر عند المصريين على رؤيتهم لمفهوم الحاكم المثالي الذي يجمع بشخصه اللطف والرهبة. ويرد هذا التوازن في العديد من النصوص. فالملك هو ذلك الإله الخير الذي يرهب جانبه في طول البلاد وعرضها. فهو محطم الجباه. لا يستطيع أحد الوقوف بقربه. حربة لا تنتهي ولا يبقى على أحد أيضاً هو سيد اللطف. غني الحلاوة. مدينته تحبه أكثر مما تحب نفسها. وتفرح به أكثر من فرحها بإلهها المحلي. هنا نجد أن الإله يتقلب بالحب وبالحرب.

إنه شخصية تحوي أكثر من جانب. إنه كالشمس والنيل الرفيقين الرهيبين في فعلهما.

نقطة الانطلاق في بحث مفهوم الإله عند المصري هي أن ملك مصر إلهاً. والملاحظ ان لقب فرعون (الملك) كان ذا شأن فهو ابن (رع) وإنه ابن (رع) الأوحد.

إن جعل فرعون ابناً (لرع) كان يهدف أن يجعله يحكم أهم ما يعنى به (رع) وهو أرض مصر.

Scanned by CamScanner

المحاضرة الثالثة

أما مصر فالناس يقولون منذ عهد (الآلهة) أنها ابنة رع الوحيدة وهذا الأمر يفسر علاقة الأم والاخت لأزواج الآلهة.
ولما كان الملك صاحب مصر وسلطانها والمسؤول عنها فمن حقه أن يسيطر بالقوة، ولكنه لما كان حكيما فقد عني ببلده أيضا عناية المربي.

كان المصري يصر على القول أن الملك هو الابن الجسدي الذي جاء من صلب الإله لم يكن أحد ينكر ميلاده في هذه الدنيا من أمراه، غير أن أباه إله ولا ريب في ذلك.

فالإله رع كان كما تصوره الأساطير يتردد على الأرض ليلد لها حكاماً.

أما مشكلة الأب الأرضي، إذ أن الملوك موجودون ويلدون أولاداً يصيرون ملوكاً بعده فلم تكن تشكل مشكلة بالنسبة إلى تفكير المصري إذ يزعمون أن الإله الأكبر حين ينشد النسل يتخذ شكل الملك الحي ويهب المني الذي يصبح فيما بعد (ابن رع) وعند الموت يعود إلى جسم والده ففي نص يرد التالي:

"دخل الإله أفقه، وصعد ملك مصر العليا ومصر السفلى إلى السماء واتحدا بقرص الشمس"

هذا ويمكن تحليل الألقاب التي تنعت إلى ملك مصر بمجموعات ثلاث: فقد رأينا أنه كان يدعى ابن الإله، وخليفته، ونقمصه مسؤوليات مصر.

فمن المعروف أن أرض مصر كانت تقسم إلى وادي النيل الضيق، والدلتا الواسعة ولمصر العليا روابط بالصحراء، أما مصر السفى فتشير إلى البحر الأبيض المتوسط، وأسيا وكان بين هاتين المنطقتين فرقة فالواحدة منهما تشعر باختلافها عن الأخرى رغم تجاورهما.

ويشير نص اسطوري إلى ذلك بالقول في وصف حياة رجل ترك وظيفة له في نزوة فجائية فعبر عن حيرته بالقول:" لست أدري ما الذي انتزعني من مكاني" إذن كانت هاتان المنطقتان متباينتان تنافس كلتاهما الأخرى منافسة تقليدية أنهما تؤلفان وحدة، فكان من مهم الحكام جعل مصر العليا ومصر السفلى أمة واحدة وكان الملك بموجب ألقابه الرسمية (سيد المصريين) وكان يضع على رأسه التاج الرامز إلى وحدة القطرين، وكان أيضا (السيدتين) أي ملتقى الآلهتين الحاميتين للشمال والجنوب.

فيعبر عن القصيدة بأن الآلهتين المتنافسين لمصر العليا ومصر السفلى (وست) يقيمان جسدياً في شخص الملك.

هذا الإحساس بوجود منطقتين ظهر إدارياً بازدواج في الوظيفة والموظفين فكان وزيران، وخازنان، وأحياناً عاصمتان.

أما المجموعة الثالثة من ألقاب الفرعون فإنها تجعله متقمصاً للإله حورس. وهو صقر الإلهي السماء نفسها وتشبيه الفرعون بحورس كتلقيبه بابن (رع) وتجسيد ألهة المصريين وهو أقدس من أن يخاطبه أحد مباشرة، فمن كان بشراً عادياً لا يستطيع أن يتكلم الا في حضرة الملك، وعلى المرء ان يلجأ إلى أساليب من اللف والدوران ليتجنب الأشياء للمباشرة إلى الملك.

وليس بوسعنا الجزم بأن تجنب التماس اللفظي بالأبهة والجلال يوازيه تجنب التماس الجسمي بشخص الملك، إلا أن هناك قصة يشوبها بعض الغموض عن أحد نبلاء البلاط إذ مسه صولجان فرعون. فأكد له فرعون وأعاد التأكيد بأنه لن يصاب بأي أذى من جراء ذلك. ليس في مس أحد الناس صرفه بعصا ما يبرز تضخيم القصة .أهلا

Scanned by CamScanner

المحاضرة الثالثة

للنقش في جدار أحد الأضرحة فلنا أن نعتقد أن جلال الملك من قوى الأذى ما لا يمكن القضاء عليه إلا بألفاظ من فرعون نفسه.

فإذا صح ذلك كان جسد الملك خطرا على البشر العاديين، ولكن مما لا شك فيه أن للملك مرافقين وخدماً، وأن هناك طريقة لإنقاذهم من أذى الجلالة وهذا المبدأ هو مبدأ (ديودروس) الذي ينص على خدم الملك يتم اختيارهم من أرفع الطبقات القريبة دما من الملك، والمبدأ الثاني هو أن للآلهة الآخرين مرافقين يفنون بأخص حاجاتهم فيجوز للملك أن يكون له خدم كهان منحولون للعمل باسمه، فهم في مأمن من الأذى.

والأفعى المنتصبة على جبين الملك ساحرة تنفث اللهب، وتقي شخص الملك من اقتراب الأناس اللذين لم يخولوا بذلك. وكما كان شخص الملك مشحوناً بطاقة هائلة كانت مسؤولياته العليا أيضا تتطلب علما ومقدرة فوق طاقة البشر.

فقد قال أحد وزرائه الكبار إن عليهم بما يحدث ما يقع ليس في الدنيا شيء لا يعلم به إنه إله الحكمة (ثوث) فإذا رغبت ليلاً في خطة ما، تحققت عند الفجر عاجلاً. وهذا أمر خارق لقدرة البشر وهو سر الملكية المكتوم، فقد أتى زمن انقلبت به الدولة وتحطم الحكم وشاعت الفوضى فقيل إن بوح هذا (السر) هو الذي أدى إلى تصدع الحكم الإلاهي.

كان الملك رجلا شديد الوحدة والوحشة فهو يقف بمفرده بين البشر والآلهة والنصوص والصور المنقوشة مؤكد هذه المسؤولية وهذا نشيد يخاطب أحد الآلهة جاد فيه.

لا يعرفك أحد إلا ابنك (الملك) وهو الذي جعلته يفهم خططك وجبروتك والملك هو الذي يبني الهياكل والمدن ويكسب المعارك ويسن الشرائع.

ولعل خير صورة للحاكم المصري الصالح هي هذه، إنه راعي شعبه فهو يحارب للحصول على مراع جديدة له ويقضي عنه الحيوانات الضارية.

وفي النصوص المصرية ما يؤكد هذه الصورة، فأحد الفراعنة مثلاً يذكر لماذا جعلت منه الآلهة حاكما (لقد جعلني راعي هذه البلاد، لأنه أدرك أنني سأحافظ علل سلامتها له، لقد ائتمنني بما يحميه هو).

إنه الراعي الصالح، الساهر على البشر كلهم، فقد جعلهم خالقهم في عنايته.

ولفكرة الراعي، ولا شك قطب آخر سالب /معنى سلبي/ ينطوي على أن الناس أنعام وممتلكات هي في درجة دنيا من الوجود غير أن هذا لم يرد قط في أي نص، أن يكون الفرعون رب أو مالك للمصريين كانت أمرا مسلما به ، لهذا نجد بأن جميع النصوص تركز الاهتمام على العناية التامة بهذه الممتلكات، أكثر من اهتمامها بحقيقة هذه الممتلكات نفسها أنه ضابط المياه التي تخصب الأرض وهو أيضا صانع الأمطار للأقطار الأجنبية ، وهناك نص يجعل ملك الحثيين يقول أن على بلاده أن تقدم القرابين إلى الفرعون لأنه إذا لم يتقبل فيها القرابين، حرقت المصر، لأن المطر تحت سلطان ملك مصر، إلا أن الفرعون نفسه كان أكثر تواضعا بهذا الشأن ، فلم يدع بأنه صانع الأمطار للأقطار الأخرى بل أنه الوسيط من أجل المياه . فكل ما في الطبيعة مما يتصل برفاه مصر هو في أمرة فرعون فهو /سيد النسيم العذب/ وهو يسيطر على القمر والنجوم.

Scanned by CamScanner

لما كان المنقد الرسمي ينص على أن الملك هو الدولة ولما كان عليه أن الآخرين بسلطته ومسؤوليته فالوزير بمكانته العليا ما يؤهله لتحكيم فطنته في بعض الأحيان وهناك نص يؤكد ذلك، أي آمون ورع يا وزير الفقير! إنه لا يقبل مكافأة لم يقل بها الحق، وهذا يؤكد أن عماد الدولة المصرية كان اجتماع الناس ضده فينبع من تطبيقه للقانون.

فهذا النص يؤكد ذلك.

إنما يمقته الإله هو إظهار التحيز هذا ما توصى به هذه هي شروط الحكم الصالح كما يعبر عنها الملك الكبير ووظيفته

فالعدالة هي في تنفيذ الشرائع تنفيذ لا تخيير فيه لا في رفع الظلم الإنساني

انتهت المحاضرة

Scanned by CamScanner